أزمة النقد العربي

بقلم الدكتور عبدالله عبدالدائم

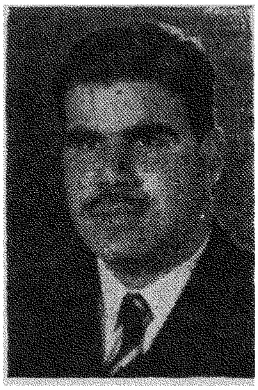

« ان الربط بين الانطلاقة القومية والتفتح الانساني ـ وهو ربط لا تكون بدونه الوثبة القومية جديرة بهذا الاسم ولا تصل بدونه الى غايتها ـ تقع على الادباء مسؤولية القيام بـه ، وتقع على النقـاد مسؤولية تذكير الادباء بمعناه وضرورته . »

لا شك ان الادب العربي المعاصر يعاني من بحـران طويل ، قد يتمخض عن خصب وعطاء وقد لا يلد غير بحران اوسع . واجتناب النتيجة الثانية لا يكون الا اذا وعـى الادب البحران واستطاع ان يتجاوزه عن طريق مغالبتـه لذاته ، وعن طريق ادراك الادباء مسؤوليتهم ورسالتهم .

ان كل عمل خلاق لا يكون الا اذا انفتح صاحبه على افق الحرية الكاملة المطلقة . ونقصد بالحرية هنا ان يعي الشخص المؤثرات التي تدفعه الى عطائه وسلوكه ، وان يحاول عن طريق هذا الوعي التام لها ، ان يتحرر منها ولو الى حين ، ليتخذ من دونها ومن فوقها موقفا اصـيلا شخصيا .

ان كل انسان ابن مجتمعه وابـن الظروف الاجتماعية التي يحيا فيها ، ولا يتم تكون الانسان كانسان ما لـم يندمج بهذا المجتمع ويتمثل حضارته وقيمه وخيراتـه الثقافية . غير ان ثمة شكلين من اشكال الاتحاد مع المجتمع وامتصاص حضارته : الاول سلبي منفعل لا يعدو ان يكون المرء فيه قابلا لا فاعلا ، متلقيا تراث المجتمع دون مـا مشاركة نقدية فعالة يقوم بها . واذ ذاك يكون انسـانا متبعا لا مبتدعا ، يرزح المجتمع فوقه وينوء بقيم هـذا المجتمع ، بدلا من ان يكون له هذا المجتمع وقيمه اداة الهاب وتفتيح . اما الشكل الثاني من اشكال الاتحاد مـع المجتمع فقوامه ان يتحرر الفرد من المجتمع الى حين ، عن طريق وعي يعلو على كل شيء ويمحو كل شيء ليبني الاشياء من جديد ، ويشكل في كل قيمة ليلد قيما حقـة . وقد يعود مثل هذا الفرد ، بعد هذا التحرر المطلق والمحو التام ، الى ان يتبنى كثيرا من قيم مجتمعه ، والى ان يمتص تراثه وحضارته . ولكنه اذ يفعل يكون في الواقع بانيا لقيم جديدة وان تكن موجودة ، خالقا لحضارة حيـة مستحدثة وان تكن عريقة في القدم . على ان هذا الفرد قد يجاوز في احيان اخرى ما في مجتمعه ، ويرى ان بعض ما فيه من قيم يحتاج الى تقويض او تعديل ، وعنـد ذلك يقف موقف الثائر المجدد . وفي الحالين يقف مثل هـذا الفرد من المجتمع ومن القيم الانسانية التي يحملها موقفـا حرا خصيبا : انه الان يأخذ القيم على عاتقه ومسؤوليته ، ويدافع عنها دفاعه عن حقيقة رآها ووصل اليها بعـد رياضة وجهد وتجربة عميقة . انه الان قادر على ان يغالب كل شيء ، حتى نفسه ، في سبيل تلك الرؤية التي رآها ، رؤية الحقيقة وقيمها .

وما يصدق على الفرد في سائر مجالات النشـاط الاجتماعي ، يصدق خاصة على الاديب وعلى مجال الابداع الادبي . فالاديب لا يكون مبدعا حقا لمجتمعه ، ما لم يغد هذا المجتمع الذي يتأثر به شيئا في قبضته ، يعـرف انه يتطلع اليه من الذرى ويعرف ان يتفاعل معه تفاعـلا اعمق بعد ان عرف هذا الاشراف البعيد ، وبعد ان تحرر منه ليعود اليه عودا احفل بالنور . وعندما يتأتى للاديب مثل هذا التحرر من ربقـة الانسياق مـع المؤثـرات الاجتماعية دون ما وعي كاشف لها ، يستطيع ان يكـون اديب المجتمع المرتقب . انه يكون الاديب المرجو عنـدمـا يدرك ان مهمته الكبرى كشفت الامور وبسط الحياة فـي اعماقها امام القراء ، وعندما يدرك ان مثل هذا الكشف الوضاء لحقيقة الوجود ، لا ييسر الا لمن استطاع حقا ان يخلق الوجود من جديد ، ان ينظـر اليه نظرة بديئة ، ان يزيله الى حين ، ليستطيع بعد ذلك ، ان يرى ما فيه رؤية المشرف المطـل .

مثل هذا الموقف وحده هو الذي يقوى على ان يولد من البحران الراهن عطاء وخصبا ، وان يخرج من هذا التخبط الادبي الى ادب حق يمثل وجهة نظر موحية ملهمة ينظـر بها الاديب الى الكون والاشياء . فالادب الذي لم يتحـرر من الوجود العادي الضيق ليتصل بالوجود الصميم ، الوجود بمعناه العميق وبجوهره الشامل لا يستطيع ان ينقل الحياة الى الاخرين .

هذا الانتقال من البحران الى الموقف الادبي الاصيـل لن يتم الا اذا اسهم النقد الادبي في المعركة اسهاما جديـا وتحمل مسؤوليتها . فكلنا يدرك ان ادبنا حتى الان ادب يكاد يشبه تلك النباتات البرية التي تنمو في الفيافي ، ولا تجد من يشذبها او ينظمها او ينقل شذاها . وكلما تقدم

بنا الزمن ادركنا ان دور النشر تقذف كل يوم بجديد متكاثر ، وان ما تقذف به متروك الى القراء ، يحكمون عليه كما يشاءون بينهم وبين انفسهم او يستمتعون دون ان يكلفوا انفسهم عناء الحكم . وقلما نلقى نقدا هاديا يشير ببنانه الى قيمة ما ينتج ، ويصنف النتاج تصنيفا يضع كل شيء في مستواه ومكانه . ومن منا لا يلمس اضطراب الشبيبة فيما يقرأون : انهم يحارون في أي النتاج يقرأون، وكيثرا ما تحول حيرتهم هذه بينهم وبين ان يقرأوا شيئا .

وحتى اساتذتهم الذين تقع عليهم مهمة ارشادهم ، يضلون غالبا ضمن النتاج المتكاثر ، وما ينصحون به غالبا كتب اطلعوا عليها لانهم اطلعوا عليها كما تقع الفراشة على اي زهرة . ومن العسير ان ييسر للشبيبة في بلدنا ، سواء عن طريق اساتيذهم او من يفوقهم علما وخبرة ، ان يتبينوا صفحة الادب المعاصر لهم واضحة كاملة ، وان يدركوا اخيرا ما هو اجدر بان يتخير .

والازمة لا تقف عند حدود الشبيبة وحدهم ، بل هي تتعداهم الى الكتاب انفسهم . ان هؤلاء الكتاب ينتجون دون ان يصلوا هم انفسهم في نهاية الامر الى ان يضعوا نتاجهم في المكان الصحيح ضمن النتاج الواجب المجتمع . **فالنقد الذي يعجم هذا النتاج ويوازن ويستخلص ، نقد نادر . وجل ما ييسر لادبائنا من نقد ، مديح يقوم به صديق معجب او مرتزق رخيص ، أو ثلب يقوم به خصم او جاهل. وكم يحن الادباء ، وكم يظمأ الادب الى صوت يتقرب من الحقيقة جهده ، ليقول كلمته** . فمثل هذه الكلمة الصادرة عن مقاييس جديدة واعية ، هي وحدها التي تروي ظمأ الكاتب الى من يناجيه حول ما كتب : وسواء كانت هذه الكلمة قاسية على الاديب او ممتدحة له ، تظل للاديب وحيا جديدا يقوده الى امام ويحمله على مزيد من التأمل ومجاوزة الذات . انها مأساة حقا ، مأساة لها صداها الاجتماعي البعيد ، تلك التي يخضع لها الاديب عندنا : انه يجهد ويجهد لينتج ما يرتجي ان يكون الابداع الذي ينتظره مجتمعه ، ويمضي النتاج الى السوق ، ويرتقب الاديب صوت النجوى الحقه ، صوت القيم التي عمل من اجلها ، صوت الانسان ، الذي اراد ان يعمل لرسالته حين صاغ الحرف واذاب الفكر ، فلا يجد الا فراغا وعدما . وكثيرا ما ينقلب الامر لدى من لا يجدون في عمق ايمانهم برسالة الادب ما يحميهم ، الى التبلغ بالنتائج المادية التي يدرها عليهم نتاجهم .

ويستوي في هذا ، فيما نعتقد الادباء الناشئون والادباء الشيوخ ، اذا اردنا ان ننظر الى الامور من منظار الادب الصادق الحق . فالادباء الشيوخ انفسهم في حاجة الى من يدفعهم دوما الى تجاوز ذاتهم ، بل هم اشد حاجة من سواهم ، الى صوت صارم يحول بينهم وبين ان يعيشوا على حساب مجدهم الماضي . ولعل مشكلة الصراع بين ادب الشباب وادب الشيوخ ترجع في اعماقها الى هذا الامر : فالشيوخ في معظم الاحيان يكتفون بالاغتذاء مما كان لهم من شأن ، وقلما يحاولون ان يجعلوا من الادب تجاوزا للزمن وللذات ، وقلما يضعون انفسهم في سباق مع الزمن وفي سباق مع انفسهم . وموقفهم هذا يرجع فيما يرجع الى انعدام النقد الذي يحمل صوت الحقيقة القاسي . يضاف الى هذا ان الشيخ بطبعه محافظ ، يعيش غالبا في ماضيه ، ان لم يقم حقا بتجربة فكرية ونفسية عنيفة تجعله في شباب فكري دائم ، بل تجعله كما يقول بعضهم مراهقا الى الابد . ومن مهمة النقاد ان يدفعوا مثل هؤلاء الادباء الشيوخ الى اقتحام هذه المغامرة الجريئة ، الى خلق صبوة ابدية الى نضارة الحياة ونسغ الوجود . ان الاديب الكبير هو الذي يبلغ اللحد وهو ما يزال ينادي الحياة نداء الشاب الظامىء الى كنهها وجوهرها .

وعبثا يقول القائلون : ان الاديب الكبير ليس في حاجة الى من يدفعه ويذكي صبوته ويشعل موقده . فتلك شنشنة بالية عفى عليها الزمن . وصراع الادباء قديما حول دور كل من الموهبة والصناعة في خلق الادب ، صراع تجاوزته الايام . ومن الامور التي اثبتتها طائفة من الدراسات والبحوث اليوم ان العبقرية في حاجة الى حماية ورعاية وانها لا تنبت وتنمو كما ينبت الفطر او كما تنبثق الزهور في الادغال . وخير رعاية لها شدها دوما الى رسالتها ، الى جوهرها ، الى مصيرها الذي ينبغي ان تكونه. وتلك هي مهمة قاسية من مهمات النقاد .

ان اقسى ما يصاب به الاديب ، والاديب الكبير خاصة ، ان يحاط بألسنة المديح من حوله ، المديح الذي لا يتجاوز المديح فاذا به يستظل بمجده وبوارف الثناء ، فيستغني بذلك عن كل شيء ويكفيه هذا مؤونة العناء ، ويخيل اليه انه لم يعد في حاجة الى اكثر من ان ينثر على الناس بين الفينة والفينة قطرات من زاده الزاخر وان يتفضل عليهم بشيء من فضل هذا الزاد ، عند ذلك يقضي الاديب ، لان الادب اما ان يكون تجاوزا مستمرا للذات واما الا يكون . والاديب الحي المعمر هو الذي يعرف ان يقول لمادحه قولة علي ابن ابي طالب : أنا فوق ما في نفسك ودون ما قلت . بل هو الذي يرى مثله الاعلى دوما امامه لا وراءه ، والذي يجري وراء هذا المثل الاعلى كما يجري الظمآن اللاهث وراء سراب يتباعد دوما ، او كما يتطلع الضال في الليل الى نجم ما هو ببالغه .

ونقد الذات هذا ، الذي هو امارة الحياة ودليل الغنى لدى كل اديب ، يساعد على تكوينه واذكائه النقد الادبي الصحيح ، الذي ينقل الاديب الى المثل الاعلى ، الى القيم الحقيقية ، ويعيش واياه لحظات خالدات امام نور الصدق والجد ، ويلقي في نفس هذا الاديب بؤرة لامعة تومض بما هو انساني خالد رفيع .

وندرك شأن هذا النقد ، اذا ذكرنا ان الاديب في معظم الاحيان ، يعيش تجربته الفردية ، وكثيرا ما يستغرق فيها ويذوب ضمنها بحيث ينسى ان ثمة تجارب اخرى يحياها ادباء اخرون . وهذا الايغال في تجربة واحدة فريدة

على ما فيه من غنى ، يؤدي في النهاية الى فقر خطير ، ان لم يرفد بدم جديد ، بمعنى جديد ، بمقاصد مولدة . واجترار الذات الطويل ، والتأمل المرآوي المتصل ، لا بد ان يقود الى عزلة مع الذات لا تحمل معنى اتصال اعمق مع الاخرين ، وانما تعني انعزالا حقا عن التجربة الانسانية. ومن شأن الناقد ان يرد الاديب دوما الى التواصل مع تجربة غيره من الادباء والى الاتصال بالتجربة الانسانية عامة انه اقدر من الاديب على الكشف عن انحراف هذا الاخير شطر نرجسية ذميمة أو سرد غافل . **ان الناقد هو الجسر الذي تنعقد عليه تجربة ادب مقارن مغن للادب والادباء . انه البؤرة التي تتلاقى عندها اشعة الادباء من كل طرف ، والتي تستطيع ان تضيء كل اديب بنور جديد .**

ان التجربة الانسانية تجربة طويلة متنوعة الالوان، ومن العسير على اي انسان ان يبلغ الحقيقة او شطرا منها ، او يبلغ الجمال او شطرا منه ، عن طريق سعيه الوحيد . ولا بد ان تتصالب الجهود ، وتتآزر الهمم في سبيل الكشف شيئا بعد شيء ، وبحركة متطورة متقدمة دوما عن المعاني الثاوية في الكون والاشياء . ولا بد للاديب ، الى جانب نظرته الخاصة المتمذهبة من اطلالة شاملة على جهود الاخرين ونظرات الاخرين . وقد لا تيسر له هذه النظرة دوما بحكم تمذهبه وانشغاله برؤاه ونظراته . وهنا يأتي الناقد ليملأ ثغرات هذه الاطلالة الشاملة الكلية التي ينبغي ان يملكها الاديب، وليضعه ويضع ادبه في مكانهما وموقعهما من ادب العصر ، ومن ركب الزمن وحصاد التجربة الانسانية .

وما نرانا في حاجة الى مزيد من الحديث عن الدور الذي ينتظره ادبنا العربي المعاصر من الناقد وقلمه فكلنا يدرك في بساطة ويسر ان ادبنا العربي هذا يشكو اليتم، وانه لا يجد اقلاما ناقدة صادقة ترعاه وتضعه حيث ينبغي ان يوضع . انه يتيم القيم التي تهب له قيمته ، يتيم الحرف الذي يستخرج معنى حرفه .

والامر الجدير بالبحث ، ما هو تقرير هذا اليتم ، ونعي افتقاد النقد هذا ، وانما هو السؤال عن اسبابه وكشفها .

ونقول منذ البداية ان هذه الاسباب اسباب عميقة في نظرنا ، تتجاوز ما يذكر عادة من مبررات عارضة عابرة ..

فقد يقال أن ضعف النقد من ضعف الادب ، واننا لا نجد نقادا كبارا لاننا لا نجد الكثير من الادباء الكبار . وهذا القول مردود في الواقع : اذ مهما يكن من شأن الادب عندنا ومن تخبطه وبحرانه ، يظل من الصحيح ان ثمة فوارق بين نتاج ونتاج ، وان ثمة وفرة في النتاج ، وان ثمة نتاجا رفيعا جديرا بالنقد . ثم ان هذا القول هو ضرب من المصادرة على المطلوب الاول كما يقول المناطقة ، او هو ضرب من الدور الفاسد : فكما أن ضعف النقد من ضعف الادب كذلك ضعف الادب من ضعف النقد . والفراغ الذي يتركه

— التتمة على الصفحة ٩٥ —

نتائج
مُسابقَاتُ « الآدابْ »

*

تألفت ثلاث لجان من الادباء لدراسة المخطوطات المقدمة الى مسابقات « الاداب » لعام ١٩٦٠ ، على الشكل التالي :

لجنة الشعر : الاساتذة نزار قباني ، بدر شاكر السياب ، الدكتور خليل حاوي .

لجنة الرواية : الاساتذة توفيق يوسف عواد ، الدكتور محمد يوسف نجم ، عبد الاله لحود .

لجنة الدراسة الادبية : الاساتذة الدكتور علي سعد ، الدكتور جبور عبد النور ، عبد اللطيف شراره .

وقد درست لجنة الشعر الدواوين المقدمة وعددها اثنان وعشرون ، فوجدت ان افضل ماقدم للمسابقة هو ديوان **« ابيات ريفية » للشاعر**

عبد الباسط الصوفي

فقررت منحه الجائزة وقيمتها الف ليرة لبنانية (١) .

ودرست لجنة الرواية الروايات الاربع عشرة التي اشتركت في المسابقة فقررت منح جائزتها ، وقيمتها الف ليرة لبنانية ايضا لرواية

« المهزومون » للاستاذ هاني الراهب

من الاقليم الشمالي .

اما لجنة الدراسة الادبية ، فقد قررت بالاكثرية

حجب الجائزة

« فالاداب » تشكر اللجان الفاحصة ، وتهنيء الفائزين اللذين سينشر كتاباهما في وقت قريب (٢) .

وستعلن المجلة في العدد القادم عن مسابقاتها الجديدة لعام ١٩٦١ .

---

(١) ستترسل هذه الجائزة الى ورثة الفقيد الصوفي ، كما ان دار الاداب التي ستنشر الديوان ستحول الى الورثة كل ربح ينتج عن بيعه ، احتراما لذكرى الفقيد الراحل .

(٢) ادارة مجلة الاداب مستعدة لاعادة المخطوطات غير الفائزة الى اصحابها اذا كتبوا لها في هذا الشأن .

أزمة النقد العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

الادب ينبغي ان يملأه النقد **وتقصير الادب عن اداء رسالته ينبغي ان يكشف عنه النقد ويعالجه** . على اننا نعتقد على العكس ، أن جو الادب في بلادنا خير جو ملائم لمهمة النقد : فالنتاج وفير كثير ، والمحاولات متعددة ، والادباء كلهم يمرون بتجارب ادبية جديدة نتيجة تمازج الثقافات والتأثر بالاداب الاجنبية ، والرغبة في خلق ادب اصيل مبتكر رغبة قائمة بل متحققة في بعض الاحيان . ومع ذلك فصوت النقد صامت ، واصداء الادب فيه خرساء .

وقد يقال غير هذا . قد يقال ان رسالة الادب تأتي في مجتمعنا العربي في المرتبة الثانية ، وان الناس مشغولون عنها برسالة السياسة والاهتمامات السياسية المتصلة بالكيان القومي كله ، وهذا أيضا تفسير ناقص . فالادب العربي ، كأي ادب ، ليس معزولا عن سائر حياة المجتمع العربي ، وهو ليس معزولا عن المعركة القومية والسياسية خاصة . ومنذ سنوات بعيدة قدم الادب رسالة كبرى في هذا المجال ، فعبر عن المشاعر الوطنية والقومية ، وما يزال يجهد كل يوم للربط بين رسالته وحاجات الشعب العربي ، بين مطالبه ومطالب الكيان العربي. وكثير من ادبائنا الصادقين ، نقلوا الى نفوسهم ومشاعرهم مشاعر مجتمعهم وحاجات امتهم ، وخلقوا من ذلك أدبا قوميا يسهم في المعركة الشاملة التي يقوم بها العرب في كل مكان . ولئن كانت الاهتمامات القومية والسياسية شغل الناس الشاغل في هذه المرحلة التاريخية من حياة مجتمعنا ، فكم حري بهذه الاهتمامات أن تنشغل بالادب الذي يعبر عن هذه المشاعر القومية ، وان تعنى بالفكر الذي يريد ان يصون هذه الاهتمامات السياسية ويحميها من الانحراف؟ ان كل فرد عربي واع يشعر اليوم **ان المعركة القومية والسياسية التي تخوضها الامة العربية ، لا تأخذ معناها السليم ولا تتخذ كامل مداها الا اذا صانها الفكر الصادق وقادتها الثقافة الرحبة . ومهمة الادباء الاولى ان يقوموا بهذا الصون وان يضعوا في الحركة القومية العارمة كل ما يريده الفكر من صدق ومحبة واحترام للانسان وتطلع الى قيم انسانية حقة . ومهمة النقاد ان يسهموا في هذا مع الادباء فيكونوا لهم الحافز والحامي** . ان رسالة الادب الحقة لا تجد منطلقها الرحيب في وقت من الاوقات كما تجده ايام الانبعاث القومي والنهضة السياسية . . هنالك يقف القلم ليدرك مسؤوليته الكبرى ، ويتململ الحرف ليجد كلمة البناء ، كلمة الامة . وهنالك تعظم مسؤولية نقد الحرف للحرف واستجواب الكلمة للكلمة . ونحن اليوم هناك حيث ينتظر مجتمعنا المنطلق قولة الفكر الصادق وصرامة النقد المؤمن .

ان معركتنا القومية الكبرى ، لن تصل الى مستقرها الا اذا كانت في الوقت نفسه معركة انسانية كبرى ، ولا بد بالتالي ان تداخل القيم الانسانية عملنا القومي اليومي ، وان ندرك ان تفتح قوميتنا لا يتأتى الا مع تفتيح انساننا العربي ، مع تحريره من كل عبودية ، مع تعبئته بالقيم الثقافية والحضارية الحقة . ومثل هذا الربط بين الانطلاقة القومية والتفتح الانساني ، وهو ربط لا تكون بدونه الوثبة القومية جديرة بهذا الاسم ولا تصل بدونه الى غايتها ، تقع على الادباء مسؤولية القيام به ، وتقع على النقاد مسؤولية تذكير الادباء بمعناه وضرورته .

وقد يقال بعد هذا وذاك ان نتاجا واحدا من نتاج الادباء خير من الف نقد ، وان قولة بيكون الشهيرة « ان تجربة واحدة من تجارب الطبيعة تعدل عندي الف دليل عقلي » تصدق ايضا على ميدان الادب والنقد . قد يقال بتعبير اخر ان الناقد هو القاريء وحده ، وان الناقد طفيلي يريد ان يعيش على نتاج الادباء ، وهو يعجز عن فهم هذا النتاج ، وكثير ما يشوهه ويسيء اليه . فلا نقد اذا ولا نقاد ، بل ادب وادباء ، والحكام هم القراء ، مهما يكن حكمهم فرديا . ذلك ان الادب تجربة شخصية ، وفهمها تجربة شخصية ، ولا بد ان ندع لكل قاريء المجال لتجربة ذاتية يقوم بها مع ما يقرأ ، كما ندع لكل اديب مجال مثل هذه التجربة مع ما يكتب .

وفي هذا القول كل الصيد ، وعنده تكمن المشكلة الحقيقية ، والرد عليه يقودنا الى صلب الموضوع في نظرنا انه يضطرنا الى ان نقول منذالبداية **ان ازمة النقد العربي لاترجع الى كثير من الاسباب العارضة التي تذكر ، وانما ترجع الى مهمة الناقد ما تزال غامضة قلقة غير مستبينة لجمهرة المهتمين بالامر** . ومرد هذا الغموض في مهمة الناقد الى النقاد انفسهم وما يدركونه من رسالتهم .

ذلك اننا نستطيع ، بشيء من التعميم ان نقسم النقد في البلدان العربية الى ثلاثة انواع اساسية :

الاول نقد يستند الى النقد العفوي ، الى حكم شخصي غامض ، شعاره : هذا يعجبني وذاك لايعجبني ، وفي مثل هذا النقد نلفي انطباعات شخصية تتجلى في عبارات عامة غائمة تحمل شتى المعاني والتفسيرات ، ويمكن ان تنطبق على انواع كثيرة من الاساليب .

ومثل هذا النقد لايستمد قيمته في نظر القراء الا من شأن قائله ومكانته الادبية ، وهو في معظم الاحيان نقد يتأثر تأثرا كبيرا بالعلاقة الشخصية التي بين الناقد والكاتب ، ويلعب فيه استلطاف الناقد للكاتب وتعاطفه معه دوراكبيرا مادام قوامه الانطباع الذاتي الشخصي .

ولا حاجة الى بيان تهافت مثل هذا الضرب من النقد رغم شيوعه ، ورغم انه النقد الغالب عندنا ، لاسيما بعد ان تولت مهمة النقد في معظم الاحيان صحافة هزيلة مرتزقة . ولا شك ان مثل هذا النقد يلعب دورا كبيرا في تشكيك الادباء والقراء في قيمة النقد وضرورته .

اما النوع الثاني من النقد السائد عندنا ، فهو النقد الذي

يجعل مهمته التحليل والشرح ، دون أن يشتمل ذلك التحليل على تقويم حقيقي . ومثل هذا الضرب من النقد ، يدع غالبا النتاج الذي لم تعرف قيمته بعد ، ويكتفي بتحليل النتاج الذي اشتهر وعرف ، ويجعل مهمته الاولى تحليل ما في هذا النتاج من قيم ومعاني ، دون ان يحاول اي تقويم ونقد . انه بتعبير اخر ضرب من « الرصف الحي »لكبريات المؤلفات الادبية ، او حواشي موشاة مطرزة على الكتب القيمة ، او ضرب من « المغامرات التي تقوم بها النفس وسط امهات المؤلفات الادبية » على حد تعبير اناتول فرانس ، ومثل هذا النوع من النقد هو الذي دعت اليه مثل « مدام دوستايل » في فرنسا ، ومثل الشاعر الفرنسي « هوغو » حين انكر على الناقد حق مناقشة العبقرية ومجادلتها . والى هذا الضرب من النقد يلجأ نقادنا اليوم حين يتحدثون عن نتاج كبار الادباء ، وحين ينقلون خاصه النتاج العالمي الشهير .

وواضح ان مثل هذه المهمة لايمكن ان تكون مهمة النقد الحقيقي ، **فالناقد لايجوز ان يكرس عمل الادباء ويباركه، بل عليه ان يكتشفه حقا ويجاوه . ومثل هذا الناقد الذي يسير في ركاب الابداع الرائع الذي اجمع عليه الناس ، لايستطيع ان يسهم في معركة الادب ، لان هذه المعركة تحتاج دوما الى من يدفع بها الى امام عن طريق تقويم لها يجعلها تتجاوز ذاتها ، ومن بدهي الامر ان لانقد بلا تقويم .**

والنوع الثالث من النقد الذي بدأ يشيع في بلادنا منذ امد ليس ببعيد ، هو النقد الذي يريد ان يتجاوز حدود الادب الخالص ، ليدخل في اطار التحليل الفلسفي او النفسي او الاجتماعي او الخلقي . وكلنا يعلم ذلك الطراز من النقد الذي تأثر بالدراسات الاجنبية ، فأخذ يعنى بتحليل المؤلفات تحليلا يستند الى حقائق علم النفس او حقائق التحليل النفسي او معطيات علم الاجتماع او قواعد الاخلاق او مبادىء الفلسفة .

ولا شك ان مثل هذا الضرب من النقد محاولة جدية اكثر من النوعين السابقين ، فهو يخضع النتاج الادبي اولا لبعض القواعد ، مجتنبا بذلك افات النوع الاول من النقد نعني الحكم العفوي الذاتي الذي لايستند الى مقياس واضح ومعيار مقرر . وهو ثانيا لايكتفي بان يصف النتاج الادبي ويستعرض مافيه ، بل يجاوز ذلك الى النبش في اعماقه ، الى العوامل الخفية التي ولدته ، الى ربطه بصاحبه وربط صاحبه بالعوامل التي اثرت في تكوينه .

غير ان الناقد الدائن بمثل هذه النزعة لايستطيع ان يرى النتاج الادبي الا من زاوية واحدة ، هي زاوية المذهب الذي يأخذ به . وهو لايستطيع بالتالي ان يطل على المؤلف الادبي الاطلالة الشاملة التي لابد منها لكمال النقد. بل هو يحاول في معظم الاحيان ان يرى في المؤلف افكاره هو ومذهبه هو او نقيض تلك الافكار وذلك المذهب .وكثيرا ما يحمل الاثار الادبية ما ليس فيها ويقسرها على ان تدخل في قالب مذهبه الذي يريده . ويكفي للدلالة على هذا ان نذكر بعض ضروب النقد الادبي التي قدمها « فرويد » صاحب مدرسة التحليل النفسي ، او التي قدمها « ماركس» فيلسوف المادية الجدلية . فهل ندرك حقا معنى اثار بودلير اذا ذكرنا انها اعتراف بعقدة أبوية لديه ؟ وهل نزداد وعيا لنفس هوغو أذا قلنا انه وليد عقدة قتل الاب ؟ هل ندرك روعة كتابات دوستويفسكي اذا قلنا انه كان مصابا بمس الاغتصاب،كما كان تولستوي مصابا بالنرجسية؟ كذلك هل يكفي في تقويم آثار « فلوبير » و « موباسان » ان نقول انهما كاتبان بورجوازيان كما اراد ماركس ؟

ان الناقد الحق لايستطيع ان يستغني عن نظرة شاملة الى الادب ككل ، ولا يجوز ان يحكم الا من خلال مثل هذه النظرة الشاملة . والنقد المذهبي المستند الى نزعة نفسية او فلسفية او اجتماعية ، يضل طريق النقد ان خيل اليه انه يصيب بنقده كل مافي الاثر الادبي . اما ان اتخذنا من مثل هذا النقد وسيلة من بين الوسائل التي تؤدي الى فهم الاثر الادبي وتقويمه ، فعند ذلك يحتل مكانته الغالية في ميدان النقد الصحيح .

هكذا اذا نظرنا الى النقد في البلدان العربية هذه النظرة المجملة ، استبان لنا ان هذا النقد بانواعه الثلاثة الكبري ، لايطمئن حاجات النقد الحقيقي ، ويظل مقصرا عن العناية التي وجد من اجلها النقد ، ومن هنا كانت الشكوك فيه ، ومن هنا نراه بعيدا عن أن يحتل المكانة التي تنتظر منه .

ويبقى ان نسائل اخيرا ما هو اذن النقد الصحيح الذي من شأنه ان يعيد للنقد قيمته ومكانته ؟

وعسير علينا في مثل هذا المقام ان نجيب على مثل هذا التساؤل جوابا كاملا . وحسبنا ان نتحدث عن اهم معالم مثل هذا النقد المرجو .

ان الازمة الكبرى في النقد ، حتى في البلاد الاجنبية ، ترجع قبل اي شيء اخر ، الى ذاتية النقد ، ومما يخلق الارتباك في الحكم على شأن النقد ارتباك النقد نفسه في احكامه وتباين مايعطيه من نتائج . وهذا التباين في احكام النقاد يبلغ من التباعد احيانا حد التناقض كما نعلم . فكأن النقد يفتقد اذن مقاييس مشتركة او الحد الادنى من المعايير الموضوعية الثابتة التي يستند اليها ، وكأنه بسبب ذلك ذاتية مطلقة يتساوى لديها الوجود والعدم .

والمسألة دون شك عسيرة عميقة . انها في حقيقتها ترجع الى مسألة كبرى هي قدرة الذات على ان تحكم على ذات اخرى . غير ان هذا كله لايعدو ان يشير الى ان ثمة مشكلة ينبغي حلها ، ولا يعني بحال من الاحوال ، كما قد يخيل ، ان المشكلة غير قابلة لان تحل ، ولا يجوز ان ننتهي من تقرير هذه المشكلة الى موقف اشبه بموقف النوع الثاني من النقاد ، نعني الى القول بان الفن لم يخلق ليحكم عليه ولينقد ولكنه خلق ليؤخذ ويشاهد ، لنكون متفرجين سلبيين على عملية الخلق والابداع فيه ، فمثل هذه النظرة تعني في اعماقها الفوضى الادبية المطلقة . انها تقترب مما ذهب اليه انصار الادب الرومانتيكي في فرنسا ، كرد فعل على اصحاب النزعة الكلاسيكية ، حين قالوا ان كل شيء ممكن ومباح في الادب ، وان ليس ثمة حدود ولا قيود

تقص جناحي الاديب .

ان تقرير المشكلة ينبغي ان تكون نتيجته على العكس ، **القناعة بان النقد لايمكن ان يستقيم ، وان الادب لايمكن ان يحيا ، الا اذا ادركنا ان للعمل الادبي قواعده الفنية واصوله الجمالية واهدافه الفلسفية ، وان علينا ان نمهد لوضع هذه القواعد وتلك الاصول .**

لقد كانت للادب الكلاسيكي الفرنسي اصوله . ورغم ان تلك الاصول لم تكن اصولا سليمة ، وكانت جامدة قاسية، فانها ساعدت مع ذلك على خدمة الادب والنقد ، واسهمت في توكيد المعنى الاساسي للخلق الادبي ، نعني كون هذا الخلق موهبة وصناعة في آن واحد ، او موهبة صناعا بتعبير اصح ، ومهما يكن من سذاجة تلك القواعد ، يظل من الهام ان وراءها ايمانا اساسيا بان ثمة شيئا انسانيا جوهريا على الادب ان يعبر عنه متبعا قواعد تضمن تعريف الجمال تعريفا ثابتا شاملا .

كذلك حاول النقاد العرب قديما ان يضعوا مثل هذه المقاييس للعمل الادبي ، وقد تكون هذه المقاييس شكلية صورية تغلب المبنى على المعنى ، ولكنها على اية حال لم تدع الادب بلا أطر ومعايير .

ونحن اليوم مدعوون الى رسم هذه المعايير للعمل الادبي وللابداع الفني . ولا شك ان عملنا هذا اصبح ميسرا الى حد بعيد بعد ان وجدت دراسات ادبية وجمالية واسعة ، وبعد ان حاول علم الجمال ان يضع مقاييس موضوعية للاثار الادبية والفنية .

ويزداد ادراكنا لاهمية هذه المقاييس اذا ذكرنا ان النقد في أعماقه ادراك لقيمة وتوجيه نحو هذه القيمة ، ولا سبيل الى ادراك قيم الاشياء دون ما تدارس لمراتبها ، ودون مابحث في اسسها .

ان مهمة الناقد كما قلنا ونقول ان يجعل من العمل الادبي عملا متجددا متقدما دوما عن طريق مايقذفه امامه من قيم . ولا بد للنقد ، اذا اراد فعلا ان يدفع عجلة الادب الى امام ان يملك منظومة من القيم الادبية الشاملة، التي تلتقي فيها النظرة الفنية بالحقيقة الفكرية والفلسفية .

فمثل هذه المنظومة التي يطل الناقد من خلالها على معنى الاشياء ، على كنه الجمال وجوهر الحقيقة ، هي التي تجعل منه قائدا يحرض الاديب دوما على تجاوز ذاته في سبيل الوصول الى اسمى مايستطيعه من قيم الحق والجمال ، ان رسالة الناقد ان يصل بالاديب الى اقصى مايستطيعه من تفتح على قيم الوجود ، ولا يتم له ذلك الا اذا ادرك هو اولا هذه القيم ووعى مراتبها ورسم وسائل بلوغها .

وادبنا العربي احوج مايكون الى مثل هذا النوع من النقد ، والبحران الذي هو فيه لايخرجه منه الا نقد مزود بمقاييس قادرة على ان تدخله في اطر تمسك بوجوده وتقيه من الضياع .

ولا نعني بهذا ان بعض المحاولات لوضع اسس موضوعية للنقد الادبي لم تتم في بلادنا . فثمة تجارب في هذا الباب، غير انها مازالت في بدايتها ، وما تزال بعيدة عن ان تفيد فائدة عميقة من نتائج الدراسات الجمالية والادبية التي تمت في العالم .

يضاف الى هذا ان مثل هذه المحاولات ، على قلتها وتقصيرها عن كامل المدى المطلوب ، ماتزال تعيش في معظم الاحيان في معزل عن حركة النقد الادبي ، وتدارسها وتداولها لم ييسرا بعد ، وما يزال النقاد الفعليون في واد وهذه الدراسات في واد اخر .

على ان جوهر الامر ان الاسس الموضوعية المرجوة ، ينبغي ان تسقى من نظرة شاملة الى قيم وجودنا وحياتنا ، وينبغي بالتالي ان يصحبها جلاء متصل لمعاني هذا الوجود ومستلزماته . ومن هنا كان نمو النقد الادبي ونمو النظرية النقدية الموضوعية وتبطين اوثق الارتباط بنمو فلسفتنا ونظرتنا الى الكون والاشياء .

ان النقدفي معناه العميق يعني تحقيق قيم الحياة ومعنى الوجود الصحيح في النتاج الادبي ، ولا يتم ذلك الا اذا ارتبطت قواعد الفن الجمالي بالمبادىء والنظرات الفلسفية التي توجه حياتنا وترشد سلوكنا .

ان كاتبا كسارتر لايخطىء حين يقول في « ماهو الادب » ان الناثر يكتب ليقول شيئا ، وان على الناقد ان يجلو ما اراد الناثر ان يقوله ، اي ان يحكم على العمل الادبي من خلال قيمته الفلسفية والخلقية . فالناثر عنده « انسان اختار طرازا معينا من العمل ، يمكن ان ندعوه باسم العمل عن طريق الكشف ، فمن المشروع اذن ان نطرح عليه هذا السؤال : اي مظهر من الكون تريد ان تكشف ، وأي تغيير تريد ان تحدثه في الكون بوساطة هذا الكشف ؟ فالكاتب « الملتزم » يعرف ان القول فعل ، ويعرف ان الكشف يعني التغيير ، واننا لانستطيع ان نكشف مالم نستهدف ان نغير » .

وهكذا نخلص في نهاية الامر الى ان الموقف النقدي الصحيح هو الموقف الذي يجمع محاولتين في آن واحد : الاولى تطبيق مجموعة من القواعد الجمالية الموضوعية جهد المستطاع ، والثانية ربط القيم الجمالية التي يكشفها في النتاج الادبي بالقيم المثلى في الحياة ، بقيم الحق والخير ، بالقيم الفلسفية والخلقية . والمحاولتان كما قلنا ليستا منفصلتين او متعاقبتين ، انهما متحدتان ، بمعنى ان القواعد الجمالية لابد ان تستمد شأنها من القيم الفلسفية والخلقية التي تتذوقها وتتأنق في عرضها ، ايمانا منها بها . وبمعنى ان القيم الفلسفية والخلقية حين تهز نفس الكاتب لابد ان تنقلب في تربته الادبية الفنية الى قيم جمالية انفعالية . ان الحق والجمال لاينفصلان ، والجمال ليس سوى القيم التي يؤمن بها المرء ، حين تتجه بفضل الانفعال الى ان تتفتح في ابداع فني وادبي ، ان افلاطون كان على حق حين قرر ان الجميل والخيّر لايفترقان .

دمشق

عبد الله عبد الدائم